أبو الشهداء

مؤلف هذا الكتاب عملاق الأدب العربى الأستاذ عباس محمود العقاد صاحب العبقريات الإسلامية التى تأتى فى مقدمتها (عبقرية محمد) وينتظم فيها (عبقرية الصديق)، و(عبقرية الأمام).

وأبو الشهداء هو الحسين بن الامام على بن أبى طالب سبط الرسول الذى ذهب إليه وإلى أخوته كل مافى فؤاد النبى عليه السلام من محبة البنين وهو مشوق الفؤاد إلى الذرية من نسله فكان عليه السلام لايطيق اذاة تلحق بالحسن أو الحسين. مر يوما على بيت سيدة النساء فاطمة الزهراء فسمع حسينا يبكى فقال لها:

الم تعلمى ان بكاءه يؤذينى هذا النقى التقى الطاهر العلم الذى كان بكاؤه طفلا يؤذى الرسول قتل فى معركة كربلاء بعد أن سجل من ضروب البسالة والشجاعة شجاعة النفس وشجاعة العقل وشجاعة الحرب ما أمد التاريخ الإسلامى بأشرف مواقعه وألهم الأدب العربى أروع آياته.

يقول الاستاذ العقاد عن بطل كربلاء الامام الحسين:

(يخيل إلى الناظر فى أعماله بكربلاء أن خلائقه الشريفة كانت فى سباق بينها ايها يظفر بفخار اليوم كله، فلا يدرى اكان فى شجاعته أشجع أم فى صبره أصبر أم فى كرمه أكرم أم فى إيمانه وأنفته وغيرته على الحق بالغا من تلك المناقب المثلى أقصى مداه إلا إنه كان يوم الشجاعة لامراء وكانت الشجاعة فضيلة الفضائل التى تمد سائرها بروافد من كل خلق نبيل يعينها على شأنها.. فكان الحسين (شبل على) فى شجاعته الروحية والبدنية معا غاية الغايات وكان مضرب المثل بين الرعيل الأول من أشجع الشجعان فى أبناء آدم وحواء..

ملك جأشه وكل شئ من حوله يوهن الجأش ويحل عقدة العزم ويغرى بالدعة والمجاراة.

ملك جأشه ومن حوله نساؤه وأبناؤه فى نضارة العمر يجوعون ويظمأون ويتشبثون به ويبكون، وملك جأشه روية وأناة، ولم يملكه وثبة واثب إلى الغضب أو هيجة مهتاج إلى الوغى.

فكان قبل القتال وفى حومة القتال قويا بصيرا ينفض الضعف عن عزائمه كما ينفض الأسد غبرات الحصباء عن لبده ولم يخامره الأسف قط فى ذلك الموقف إلا من أجل أحبائه وأعزائه الذين يراهم ويرونه ويسمع صيحتهم ويسمعونه، فقال وهو ينظر إلى الأخبية ومن فيها:

لله در ابن عباس فيما أشار به على..

وجلس ليلة القتال فى خيمته يعالج سهاما له بين يديه ويرتجز وامامه ابنه العليل..

يـادهـر أف لـك مـن خـلـيـل
كم لـك بالإشـراق والاصـيل
من صـاحب ومـاجـد قـتـيل
والـدهـر لايـقـنع بـالـبـديل
والأمـر فـى ذاك إلـى الجليل
وكل حـى سـالـك سـبـيلى

فرد ابنه عبرته لكيلا يزيده ألما على ألمه.. وسمعته أخته زينب فلم تقو على حنانها ووجلها وخرجت إليه من خبائها حاسرة تنادى واثكلاه (اليوم مات جدى رسول الله وأمى فاطمة الزهراء وأبى على وأخى الحسن. فليت الموت أعدمنى الحياة باحسيناه.. يابقية الماضين وثمالة الباقين..

فبكى لبكائها ولم ينثن عن عزمه الذى بات عليه وقال لها ياأخت لو ترك القطا لنام.. ولم يزل يناشدها ويغريها وهو فى قرارة نفسه مستقر كالطود على مواجهة الموت وأبى التسليم أو النزول على حكم (ابن مرجانة) كما قال.. ثم احتملها مغشيا عليها حتى أدخلها الخباء.

تزول الممالك وتدول الدول وتنجح المطامع أو تخيب وتحضر المطالب أو تغيب، وهذه الخلائق العلوية فى صدر الانسان أحق بالبقاء من الممالك وما حوته، ومن الدول وما حفظته أو ضيعته بل أحق بالبقاء من رواسى الأرض وكواكب السماء).

إن المعارك لاتقاس بنتائجها الظاهرية فلرب انتصار أشرف منه الهزيمة بعد استبسال مستميت.. ولرب ظفر يكون فيه حتف الظافر فإذا به وقد هلك حين ظن أنه ملك.

لقد كانت معركة كربلاء أكبر عوامل سقوط الدولة الأموية كلها.. كما كانت الحجة الناهضة التى قامت عليها الدولة العباسية فى المشرق، والفاطمية فى المغرب بل تمسح فيها وتعلل بها وتفيأ ظلها العجم كالعرب سواء بسواء فتعلل بها أناس من الايوبيين والعثمانيين واستظل بها الملوك والأمراء من الفرس والهنود..

وإننا ونحن نعيش مرحلة فاصلة من مراحل تاريخنا.. إننا ونحن نعيش معركة هى أكبر معارك تاريخنا.. على كثرة ماخضنا فى تاريخنا الطويل من معارك رهيبة.. إننا ونحن نقف فى مفترق الطرق تتكاثر علينا قوى الظلم والبغى، وتتكاتف ضدنا قوى الشر والعدوان.. إننا ونحن نقف امام الامبريالية الأمريكية بكل طاغوتها وجبروتها.. أقول الامبريالية الأمريكية لأن إسرائيل ماهى إلا صنيعتها.. ما هى إلا مخلب القط وما كانت لتجرؤ على حربنا بغير سند منها.

إننا ونحن نقف امام هذا كله فى حاجة إلى استمداد الأسوة، والذكرة، والفكرة من تاريخنا لحشد معنوياتنا وتوطيد ثقة النفس العربية بذاتها لنعطى صمودها قوة الاصرار والاستمرار.

وليس أسوة أكبر من موقعة كربلاء التى واجه فيها الحق الباطل.. ووقف فيها النور امام الظلام فانتصر الحق انتصار الأبد وإن صرع فى الجولة الأولى.. وظهر النور وخلد وان ظن الظلام للوهلة الأولى ان ليلة سر مد وأن الفجر قد ضاع منه الطريق..

وقبل أن اختتم هذا التأريخ أعود بكم إلى كتابة استاذنا العقاد كما يعود اللحن إلى قرار..

اسمعوه معى يقول عن كربلاء المسلمون سواء أكانوا متفقين أو مختلفين، من حق هذا المكان أن يطيف به كل انسان لأنه عنوان قائم لأقدس مايشرف به هذا الحى الآدمى بين سائر الأحياء..

فما أظلت قبة السماء مكانا قط هو أشرف من تلك القباب بما حوته من معنى الشهادة وذكرى الشهداء).

رحم الله الشهيد بن الشهيد الحسين أبى الشهداء.